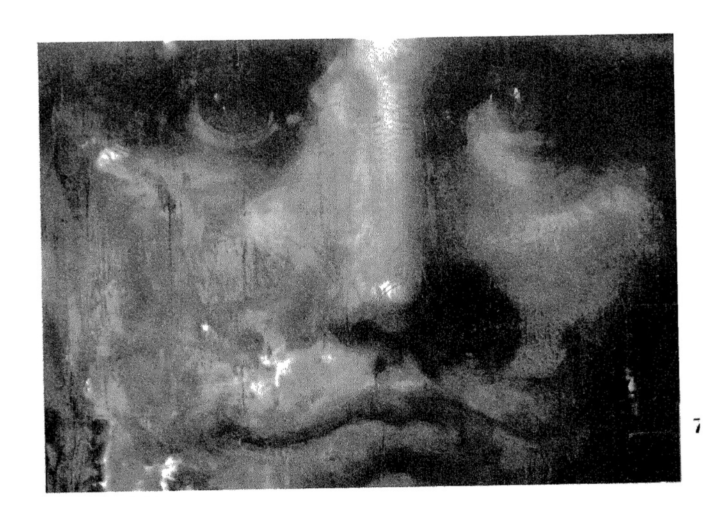
الهُوفمانيّة

(سيناريو لم يُنفّذ)



الفن السّابع 64

تأليف : أندريه تاركوفسكي
ترجمة : د. نديم معلا

الهُوفمانيّة

(سيناريو لم يُنفّذ)

تأليف : أندريه تاركوفسكي
ترجمة : د. نديم معلا

منشورات وزارة الثقافة - المؤسسة العامة للسينما

في الجمهورية العربية السورية - دمشق ٢٠٠٣

الفن السابع ٦٤

رئيس التحرير: محمد الأحمد
أمين التحرير: بندر عبد الحميد

غوفمان

تنسكب العتمة، في قبو، ذي أسقف مقببة، ومُكلّسة. طاولة، من خشب البلوط، معتمة، صارت تلمع، من كثرة ما وضع الزبائن مرافقهم عليها، مغطاة بدوائر من بقايا نبيذ البونش، حيث ينعكس ضوء باهت ليوم غائم.

ووفقاً للأصوات، غير المرتفعة، عدد الرواد قليل. وحول الطاولة، التي تتوضع مقابل النافذة، ثمة ندماء، منهكون كما لو أنهم يتحركون، على أنغام آلة «السوردنيك»[1].

منهك. ينحني على النبيذ، المنسكب، على الطاولة، ويصغي إلى، أصوات حزينة وبعيدة، إلى أغنيات المائدة. أغنيات نادرة، لا معنى لها، يتخللها صمت، يشق نسيج المحادثة، كما لو أنه جرح.

يمضي به أحدهم في عربة – والعربة تهتز وتتماوج. أيادٍ ما تسنده من الكتف. تتماوج العربة هادئة، كما لو أنها دوار، تنزلق في باب واسع. ترتفع سابحة، كالدخان، في عمود مدخنة – لكي يجلس ثانية، متعباً، حول طاولة رطبة، وسط معجبين لا أهمية لهم، بلا ملامح، يشرّفونه، بخطبهم الصامتة.

---

(١) آلة موسيقية، تشبه الناي.

- لماذا لا يحضرون الشموع

والآن ها هو يمضي، في الظلام، في أطراف المدينة، قرب الأشجار والجدران الحجرية، التي من خلالها تومض الأراضي الفارغة، والجبال البعيدة، التي تغطيها الغابات. إنه يرى ما حوله، جد قريب، أمام عينيه تقريباً، أو بعيداً، عبر الفضاء الخالي، مظلماً بسبب حلول الليل.

قريب حيناً وبعيد حيناً آخر، كرقاص الساعة، يهتز في وعيه، محولاً إياه إلى قزم أو عملاق. من بعيد يُسمع ضجيج، كذلك الذي يُسمع عادة، ويملأ صالة المسرح، قبيل بدء العرض - أصوات الآلات الموسيقية، التي تُدوزن... الأصوات الموسيقية، تصل، كما لو أن، الريح تحملها - فهي قريبة، أو بعيدة كموج البحر، تحمل الريح ضجيجه، وخفقانه، حتى لا يبقى منه شيء. بالإضافة إلى ذلك ثمة أصوات طيور البحر، أو أصوات آلة موسيقية حادة، تأتي من بعيد.

يا إلهي كم يؤلمني ظهري!

ألم غبي، ومعتاد، كما لو أنه يمتص المخ! تمنيت لو توقفت، لو أستطيع الانحناء، لو أحترق من ذلك الألم الحاد وغير الطبيعي، الذي لا يحتمله الإنسان السليم.

يتوقف في الفراغ، الممتد عبر بوابات المدينة، والعشب الضار النامي، أخضر شاحب الزهر، يلمع في الظلام، يحدث رائحة عفنة خانقة.

يضم ساقيه إلى صدره وهو مستلق على ظهره - وفي العشب المعتم تلمع قبة القميص والأزرار، وهي مبللة، بالنبيذ.

وليس بعيداً، وفي الممر تحت ظل الشجرة، التي تهتز قمتها بهدوء. يتوقف أحدهم. وفي الظلمة، يلمع الجزء الأعلى من قبعته. وجه نحيل، أسود. نظرة ثاقبة وجه مألوف! من يكون؟

ينهض غوفمان، من الأرض، ويمشي في العتمة صوب الممر، حيث ينتظره، في دائرة ظله، ذلك المعلوم - المجهول.

لا أحد هناك...

موتسارت

جرس قوي وصوت مرتفع: «بدأ العرض!»

أيقظه من نومه.

تدندن آلات الكونترباص، تقرع الطبول، تهدر الأبواق يهدر المزمار لا. بدأت آلات الكمان... أين هو؟ هكذا إذن! إنه يستلقي في غرفته، في الفندق إلى حيث وصل بعد أن زلزل المرض، منه الروح.

الجدران مكسوة بورق، عليه منمنمات مذهبة. المدفأة خمد فيها الفحم، وتحول إلى رماد.

ينهض غوفمان – كان قد استلقى بملابسه وغطى نفسه ببطانية – يصب الماء في الطست، من الإبريق ويضع رأسه فيه. يمسح شعره، ثم يقرع الجرس. يظهر الخادم.

– بالله عليك قل لي ما هذه الضوضاء؟

– يا صاحب السعادة. فندقنا متصل بالمسرح. وإن لم يسمح بعد بالإعلان عن ذلك. عبر هذا الباب السري، يمكن الوصول مباشرة، وعبر الممر، إلى الرقم ثلاثة وعشرين، «لوج» الوافدين.

– لوج؟

– نعم لوج للوافدين. مكان صغير، يتسع لشخصين، يجب أن يكونا من أشهر الناس، قريب من خشبة المسرح. وإذا كنتم سعادتكم مهتمين، فاليوم سيعرض «دون جوان» للسيد المعروف موتسارت، من فيينا – سعر التذكرة تالر وثمانية قروش – نسجلها على الحساب. يصب غوفمان بقايا الشمبانيا، من الزجاجة – التي تسبح في سطل فيه ثلج ذائب – في الكأس.

يشرب، بمتعة، تختلط بالشعور بالقرف، حتى النهاية.

يرمقه الخادم بنظرة تنم عن الخوف.

– احضر لي نبيذ «البونش»

– إلى هنا؟

– لا. إلى اللوج.

كان المسرح ممتلئاً بما فيه الكفاية. مفروشاً جيداً وبطريقة تنم عن ذوق. والإضاءة فيه ساطعة.

الأماكن، سواء في اللوج أو البارتير، مليئة بالمتفرجين والأوركسترا، كما يبدو من «الافتتاحية» رائعة.

و «الأندانتي» هزتنا بفظائع مملكة الدموع الرهيبة، تحت الأرض...

وعَبّرت الأبواق بنفيرها، في «التاكت» السابع أليغرو عن التهليل والابتهاج. وحكت الافتتاحية، عن صدام الإنسان مع قوى الشر، غير المرئية، والتي تحيطه تعد له الهلاك... وأخيراً هدأت العاصفة. وأُسدل الستار.

غوفمان يدفئ كفه المسكة بكأس الكريستال.

الليل مظلم – لوبوريلو، في ردائه الدافئ، يخطو أمام الجناح، غاضباً حانقاً. «أخدم ليلاً ونهاراً» يهدر الصوت، بالإيطالية، من على خشبة المسرح. يخرج دون جوان، مقتفياً أثر دونا آنا – ممسكاً بردائه، أي وجه!

جدائل الشعر الأسود، تهتز على الظهر. وملابس النوم، البيضاء لا تقوى على إخفاء الجمال، الذي لا يشغله الكلام الفارغ، ولا يستهويه.

وأي صوت هذا! «لا تأمَل! عبثاً تحاول» وكالرعد الهادر تأتي أصوات الآلات، المصنوعة، من معدن سماوي!

يحاول دون جوان الإفلات بقوة. ولكن هل حقاً يريد الإفلات؟ لماذا لا يدفع هذه السيدة بعيداً، ويهرب؟ هل آلمه الفعل الشرير، أم جرده من إرادة القتال، والصراع، بين الحب والكراهية؟

دفع الأب حياته ثمناً لمحاولته الهجوم على عدو قوي..

يلقي دون جوان رداءه، ويقف بكل بريقه وأناقته ويبدو الجوخ الأحمر المزركش بالفضة.

تُجسد الشخصية بقوتها وروعتها، ويتجلى الجمال الرجولي: أنف كريم، نظرة ثاقبة، شفاه مرسومة بنعومة، وحاجبان مرتعشان، يعطيان للحظة ما، انطباعاً عن وجه ميفيستوفيل، على الرغم من أن هذا لا يضير الجمال، إلا أنهما يثيران ارتعاشاً، غير متوقع. ويبدو أن النساء، اللواتي ينظر إليهن، مقدر عليهن الاستسلام والخضوع لإرادة، غير خيِّرة، ساعيات إلى لقاء حتفهن الذاتي.

دونّا آنّا

غوفمان خائف: - يعتقد أن ثمة إنساناً آخر، إلى جانبه، في اللوج. قد يكون هذا الآخر، تسلل بهدوء إلى اللوج، من وراء ظهره؟

يشعر بالإخفاق: ملاحظة واحدة تصدر عن الضيف، وقد تكون طيبة أو شريرة، غبية، يمكن أن تفسد العالم العجيب الذي تحدثه متعة الاستماع إلى الموسيقى. يقرر تجاهل جاره، في اللوج، والاندماج الكلي، بالعرض، بحيث لا تضيع منه، حتى الكلمة الصغيرة، أو المشهد القصير.

ينظر إلى خشبة المسرح، واضعاً رأسه، على يديه.

العرض يستمر

يحس بنَفَسٍ دافئ خلفه، ويسمع صوت حفيف ثوب من الحرير. وأخيراً لا يقوى على الصبر، فيلقي نظرة، من طرف عينيه، على مرآة صغيرة، ذات إطار مُذَهَّب، معلقة على جدار اللوج، ويشحب وجهه، من الدهشة. بل الأصح، من الجزع. في المرآة ينعكس وجه دونّا آنّا. دونا آنا إيّاها، ترتدي الثوب إياه، الذي يراها فيه، على خشبة المسرح!

يدرك أن عليه أن يكلمها.

تمر بضع دقائق قبل أن يقدم على ذلك.

– كيف يمكن أن يحصل ذلك. لماذا أنت هنا؟

– هنا؟ ليس أسهل من هذا. ألم يحدث هذا لك من قبل؟ على الأقل في الحلم. الشعور بأن كل شيء ممكن، بصرف النظر عما تشتهيه. كل شيء يتحقق وفي الحال. يتحقق، إذا حاولت اختبار صدقية شعورك هذا.

– في الحلم فقط.

– أليس الحلم واقعاً كالواقع؟

تضحك وهي تلحظ أنه لا ينظر إليها، وإنما ينظر إلى انعكاسها في المرآة، وتضيف: ممنوع النظر إلى المرآة في الليل.

– لماذا؟ يسألها غوفمان.

– لأنك سترى في الحلم وجوهاً مخيفة.

– على كل حال أنا أراها.

– أنت جد متعب؟

– أجل نزفت اليوم دماً من أنفي. لقد سئمت نفسي بسبب هذا المرض.

– هل أنت شاعر؟

لا يجيب غوفمان حالاً.

– إذا كنت قادرة على هذا – مشيراً إلى عمق اللوج، ومُلمِّحاً إلى وجودها هنا – فإنني أعتقد أنك تعرفين الكثير عني.

– ما الذي تقدمه لك الموسيقى؟

– تجعلك أسعد؟

– لا أدري. لعلها تبرهن على إمكانية التعبير عن النهائي المطلق. والفن هو الإمكانية الوحيدة المؤهلة لمعرفته.

– هل تتطلع إلى ذلك؟ ألا يخيفك هذا؟

ما شأنك به؟

– ربما يمكن للمرء أن يتمايز، على الأقل، بشيء ما، عن الحيوان...

ينتهي العرض. يغادر المتفرجون. ودونا آنا تسدل ستارة خضراء، نفصل بين اللوج والصالة. في اللوج يصير الجو مظلماً تقريباً.

– انظر إلى هنا. تسأله أن يفعل، مشيرة إلى المرآة. يقفان الآن جنباً إلى جنب، وينظر كل منهما، في عيني الآخر، المنعكستين. بعدها تلقي، دونا آنا، على المرآة شالاً، ثم تنزعه، وتختفي به، في عتمة الممر. يلحق غوفمان بها. الممر فارغ. وفي غرفته أيضاً لا أحد..

الوقت ليل. خلف نوافذ الفندق ريح ومطر. يتحدث غوفمان بالهاتف. يشعر أنه ليس على ما يرام، الجو خانق. خطواته الحذرة، تدب في الممر السري.

يظهر الخادم، ومعه النبيذ الحار (بونش). يرى الغرفة فارغة، والباب السري، مواربا. يذهب الخادم إلى اللوج وينظر إلى الواقف، غير مُستحسِن. غوفمان، يضع الشراب على الطاولة، ولكن لا يخرج، وإنما يقف على الباب، ولا يقرر أن يكون، أول من يبدأ الحديث.

– هنا على الجدار، كانت مرآة – يغمغم – ربما أن سعادتكم... يدير غوفمان له ظهره. يقفز فوق حاجز اللوج، ثم يجيل النظر، في الصالة الفارغة. ضوء الشمعتين

اللتين، أحضرهما إلى هنا، يعطي المسرح صورة غير واقعية، فانتازية. تتأرجح الستارة، من شدة التيار، الذي يتنزه، في البناية كلها.

- دونا آنا! ...

يضيع نداؤه في الفراغ، إلا أنه بالمقابل، تستيقظ أرواح الآلات، وفي المكان المنخفض الذي تجلس فيه الأوركسترا، يعلو صوت مخيف، قد يكون صوت إنسان، أو قد يكون مجرد حفيف، أو خشخشة.

تدق الساعة: الثانية ليلاً...

عندما يدفع الحساب للخادم، صباحاً، يثير هذا الأخير الحديث ثانية، عن اختفاء المرآة.

- كانت مرآة عتيقة، يا صاحب السعادة، وسوف يكون لصاحب الفندق، حديث غير سارٍ معي.

- أعتقد أن هذا كافٍ. يقول غوفمان ذلك، وهو يضع على المنضدة، بضع قطع أخرى من النقود، كسرتها.

- مصادفة.

- طبعاً، يا صاحب السعادة، ممكن.

- وما هو عرض الليلة؟ «دون جوان» مرة أخرى؟

- كلا يا صاحب السعادة. ثمة حدث محزن. فالمطربة التي تؤدي دور دونا آنا، توفيت فجأة، ليلاً.

في الثانية بعد منتصف الليل...

وعندما يغادر الخادم، وهو ينحني، يشرب غوفمان كأس النبيذ، ويقترب ببطء، من المرآة العالية الموجودة، على الجدار، بين النوافذ. يزول خوفه: في الزجاج البارد، ينعكس فراغ يحرك المقعد، يقف عليه، ويقرّب وجهه من سطح المرآة، إلى حد أن الزجاج «يعرق» من تنفسه. ولكنه لا يرى انعكاسه، في المرآة...

يوليا مارك

عينا السيدة يوليا مفتوحتان، على اتساعهما.

مينّا، شقيقتها الصغرى، لا تخفي دموع الخوف.

يفتح باب المكتب، ومن شق تشكل، تطل السيدة غوفمان – امرأة طويلة، شعرها أسود، عيناها زرقاوان، مُتعبتان.

– لماذا تخيف الكل؟ هل يجلب لك هذا، المتعة؟

تسأل، مُتهمةً، وتختفي في الممر.

الواقع أن الحكاية، تترك لدى الشقيقتين، انطباعاً قوياً.

يجلس غوفمان محاطاً بالوسائد، في كرسي هادئ ضحم. متعباً، ويتنفس بصعوبة.

– مينّا، عزيزتي، يوليا هل أخفتكما حقاً؟

تحاول مينّا، بعد يوليا، أن تبتسم.

– وهل هذه أسطورة؟

– كلا. كلا يا مينّا، إنها حقيقة.

يمتقع وجه الصغرى.

– حسناً. حسناً كان مزاحاً! طبعاً، أنا الذي اخترعت هذا كله.

تنظر يوليا، إلى غوفمان، إنها جادة ونظرتها عميقة، وتتابع لحظة، بلحظة، تعبير وجهه المتغير.

– هل تريدان أن أعزف لكما شيئاً ما؟

– من «دون جوان» تسأله يوليا.

– كما ترغبان.

– أنت ممنوع من المشي! فيما بعد، سيد غوفمان، عندما تُشفى.

يجعل، غوفمان، وجهه مخيفاً، بطريقة كوميدية، ويقول هامساً بطريقة مسرحية:

– لن أُشفى أبداً.

– لا يا سيد غوفمان! تفزع يوليا.

في هذه الأثناء، تأخذ مينّا، من السكرتير، الواقف في عمق الغرفة، مرآة صغيرة، وتتجه نحو المريض.

– الآن نعرف. أتسمعين يا يوليا. سنعرف الآن كل شيء! هل ما قاله السيد غوفمان حقيقة، أم تلفيق! انظر إلى المرآة! سيد غوفمان. انظر إلى المرآة!

– لا – تنتفض يوليا خائفة، وتخطف المرآة من يد أختها، وتلقيها على السجادة.

ينظر غوفمان، إليها بأسى.

– شكراً سيدتي، يقول أخيراً، وينهض بصعوبة، محاولاً أن ينحني، مداعباً. لم أكمل حديثي فحسب، محاولاً أن يوجه كلامه إلى يوليا تحديداً، كنت أريد أن أقول أنه كان لدونّا آنّا وجهك.

دكتور شبيير

يُفتح الباب، وعلى العتبة، يظهر دكتور شبيير، الذي يعالج غوفمان.

– ما الذي يجري هنا؟ يصرخ ثم يلتقط، من الأرض، المرآة، ويضعها، على مقربة، من كرسي المريض.

يتناول يد غوفمان ويبحث عن نبضه.

– يظن من يراك أنك ركضت على سلالم مسرح بامبرغسك، وكواليسه أيضاً.

– لم أنم جيداً. والأصح...

– الأصح أنك لم تنم أبداً؟

تنحني الشقيقتان، على عتبة الباب، مودعتين:

– إلى اللقاء سيد غوفمان!

– رجاء استعد عافيتك، يا سيد غوفمان. أعد بأن أحفظ، عن ظهر قلب، السوناتا!

يبقى الرجلان، وحيدين.

– أذكر أنني، في إحدى الحفلات، في الشتاء الماضي، تخيلت أنني تمزقت إلى أشلاء. وكل من كانوا حولي، كانوا أشباهي. كم عذبتني هذه الإزدواجية!

– ربما كنت تشعر بالصداع، بدوار الرأس.

لا شيء مخيف. ولكن لماذا تتذكر ذلك؟

– تعرف يا دكتور، مرة حاول أحدهم، معانداً، بأن بوسعه تحقيق الاستعمال الأفضل، دق مسمار، من رأسه، في الجدار، ضارباً إياه، من نصله. اقترب منه آخر، وراقبه طويلاً، ورأى الجهد الذي يبذله الأول، فقال أخيراً:

«حقاً إنك غريب الأطوار!» «هذا المسمار للجدار المقابل!». ابتسم الطبيب فرحاً.

– هذا الحوار – يتابع غوفمان – كما تخمن، جرى في البيت الأصفر.

– خمنت! ضحك الطبيب.

– أنت تضحك! تنهد غوفمان – الثاني.

– هذا يتوقف على رؤيتك للمسمار.

– بالضبط! كيف تنظر! فمئة بالمئة، لو كانوا مكان الثاني، (والكل، كما تلاحظ، طبيعيون. طبيعيون تماماً!) لقلبوا رأس هذا المسمار إلى الأعلى (نصله) نحو الجدار!

تعرف يا دكتور – يتابع غوفمان بلا لف أو دوران – أنا عاشق...

على العتبة تظهر السيدة غوفمان، حاملة، على الصينية، فنجان شاي، للطبيب، وكأس «بونش» لصاحب البيت. ينحني الطبيب ويستدير ثانية، نحو المريض:

– عليك أن تنام مبكراً، وأن تحاول ألا تشرب النبيذ.

– كان الله معك يا دكتور! هذا النبيذ، ضروري لي لكي أعمل. إنه يُفعِّل خيالي. دكتور. فكّرت في أقراص شراب يتناولها الموسيقيون، تساعدهم في عملهم سواء للموسيقى الكنسية، أو للأوبرا الجادة (بورغوندسك) يتململ من الألم، ويرشف من الكأس.

لم يتمالك الطبيب – وهو يرى كيف أن غوفمان أثناء حديثه لم يرفع عينه عن المرآة – أعصابه:

– ماذا رأيت هناك؟

– لا شيء. يجيب المريض، وهو ينظر إلى المرآة، متأملاً.

السيدة غوفمان (ميشا)

على الباب الخارجي تقف السيدة غوفمان، وهي تشكو للطبيب:

– عذبني بخيالاته، وأنهكني.

– ممكن. ممكن. ولكن الأهم من ذلك أنه أنهك، بهذه الخيالات، نفسه. حاولي أن تتذكري ذلك.

– يا إلهي كل ما أفعله، هو معرفة مزاجه المتقلب!

– ممكن، ممكن لمَ وهل هذا ممكن؟

– الليل كله، كان ينادي امرأة ما باسمها.

– أعتقد أنه ليس للاسم أهمية.

– تعبت وسئمت كل شيء.

– حاولي أن تقدمي له، كمية أقل من النبيذ.

– كان قراري بالمجيء إلى هنا، إلى بامبرج ضرباً من العبث. فهو لا يحتاجني. إنني أرى ذلك!

– عرّضي الغرفة للتهوية، وإلا فإنه يختنق.

– يا إلهي، حقاً..

يلاحظان أنهما يقاطعان بعضهما، كلاهما يبتسم مُحرجاً.

– هل تحبين الموسيقى؟ يسأل شبيير فجأة.

– طبعاً. تجيبه وهي شاردة.

– وأي موسيقى تعجبك أكثر؟..

ترتبك السيدة غوفمان:

– افتتاحية «الحاجّات»..

يقهقه الطبيب، يقبل يدها، ويخرج.

– أترين! تلك كانت كلمته الأخيرة

– اللعنة متى ينتهي هذا كله؟ تصرخ بالبولونية، عندما تبقى وحيدة، ويُسمع صوتها، في الفناء كله.

– ميشا!

ينطلق صوت غوفمان من المكتب – ميشا!

تنهض السيدة غوفمان من السرير، تضع غطاء عليها، وتتناول عدة «الحياكة» وتتجه إلى غرفة زوجها.

لا تستطيع إشعال الشمعة. ولكنها أخيراً تنجح. الضوء الباهت لا يسمح بطرد العتمة، من المكتب.

يقف غوفمان، قرب المدفأة، وظهره إلى زوجته. تخيفها هيئة الزوج، والتوتر البادي عليه، وعدم قدرته على الحركة.

– ما بك؟

– لا أقوى على الحركة. ظهري..

تندفع، السيدة غوفمان، نحوه.

– أقف هكذا، منذ نصف ساعة.

لماذا لم تدعُني حالاً؟..

تساعد زوجها على الوصول، إلى الكرسي.

– اجلسي معي، يطلب إليها أن تفعل وهو يتنهد.

تجلس ميشا، خاضعة، إلى المنضدة، التي عليها، الشمعة الوحيدة المشتعلة، وتشرع الحياكة.

– ربما عليك الانتقال إلى السرير؟ تسأله.

لكنه لا يجيبها.

يئن صوت الناي عذباً ورقيقاً، وتعصف أصوات آلات الكمان والكونتر باص، ويجلجل صوت الطبل، وتغني أصوات الفيولونسيل الهادئة، مثيرة في القلب، شجناً لا يمكن تفسيره.

الأداء كله دقيق وعظيم، الأصوات موحدة وتهدر بقوة، بخطوات ماحقة، تُخفت، ذلك الأنين الغامض...

تستبد بوعيه، معزوفةُ، افتتاحية «افغينيا في أوليس».

تحيك ميشا، بصمت، قرب الشمعة، ثوبها الذي لم ينتهِ، وترمق المريض، بين الفينة والأخرى، بنظرة قلقة. يفتح الباب ببطء.

يدير غوفمان رأسه. على العتبة يظهر، بطريقة استعراضية، المجهول، في ملابس أنيقة غالية الثمن. يحمل سيفاً، وشمعة في يده، ويحدق طويلاً في غوفمان.

– من أنت؟ يسأله غوفمان.

– مؤلف هذه الموسيقى.

– كيف؟

– أنا الفارس غلوك!

– أنت نائم؟ تسأله زوجته.

لا يجيبها، بل يبتسم بصمت، وسط الظلام.

تقترب من الكرسي:

– هل تحتاج شيئاً؟

ينظر إلى الباب المفتوح، الذي يتسرب من خلاله تيار هواء. ينوس لهب الشمعة.

– ألّفتُ، للتو، قصة. هل أقصها عليك؟

– مخيفة طبعاً..

– كلا. اسمع. ليست مخيفة. يبتسم وكأنه يشعر بالذنب. إنها عن الموسيقى.

– كيف تشعر الآن؟

– الأن أفضل، أفضل بكثير.

– كان عليك أن تنام، منذ وقت طويل. لم تنم في الأيام الأخيرة. أنت تتحول إلى ظل نفسك

– أهي فكرتك، أم فكرة السيد شاميسو، أوحاها إليك؟

– بطل شاميسو، يفقد ظله فقط. أما أنت فتفقد ما هو أكثر.

– ألم يخطر لك، في الحلم، الهجوم بالسيف، على البرج العالي؟

تسأله فجأة، سؤالاً ليس في محله؟

ما الذي قلتيه؟ ما الذي أفقده؟

– أنت تفقد شكلك الإنساني؟

– أفقده؟ لم يكن لي مثله أبداً...

– من يكون هذا الـ كيتخن؟ سوف تشير المدينة كلها، قريباً، إليك يا لبنان!

– كيتخن؟

– قرأت عنه في مذكراتك...

– ميشا! تقرئين مذكراتي!

– كنت تقول دائماً، أشياؤنا مشتركة. سيما وأن الدفتر كان مفتوحاً، ومُلقى على المكتب. عوضاً عن أن تفكر في مستقبلنا، أراك مثل التلميذ الذي يجري وراء ردائه. لقد مللت هذا كله! من يكون كيتخن. أسألك!

يتابع غوفمان زوجته، بوجه مُصعَّر أنهكه المرض، وهي تطوح دفتره بعيداً، وتدور حول الطاولة، وفي يدها شمعة ساخنة. يبدو له وجهها، غريباً، عجوزاً بل مخيفاً، وسط الإضاءة الخافتة.

– أنت تشبهين.. تعرفين من تشبهين الآن؟

– سآخذ دفترك وأغلق عليه عندي بالمفتاح!

تصبح على خير.

– ميشا! يتحرك غوفمان قليلاً في الكرسي، متناسياً مرضه. يشعر كأن سكيناً، يطعن وجوده كله. يتسمر في أصعب الأوضاع لكي لا يسبب، الألم، لنفسه. ومع ذلك يبتسم. يحاول أن يبتسم على الرغم من، كونه غير مرح، على الإطلاق.

يرى، في الجو نصف المعتم، كيف يظهر غلوك على العتبة. ويحاول أن يشرح له، بالإيماءة، شيئاً ما. يبتسم، ابتسامة خبيثة. في يده مفتاح مكتب ميشا. يقترب الفارس، من الطاولة، يضع المفتاح عليها، ويختبئ خلف الباب، بعد أن يخطف، الشمعة الساخنة، ويأخذها معه.

يقف غوفمان، في الظلمة، وسط الغرفة، لا يستطيع الحركة. على شفتيه، ابتسامة ساخرة.

غريبل

أمسية في بامبرغ.

وهكذا عاقبتني ميشا – يحكي غوفمان للسيد كونتس – تاجر النبيذ، وهاوي الكتب.

– أظن – يجيب كونتس – أنه لو عرفت السيدة غوفمان، أن وراء اسم كيتخن تتلطى يوليا مارك، لكانت تصرفت، بطريقة غير رومانسية.

– بالمناسبة ألا يبدو لك أن يوليا، تزداد ملاحةً، من يوم إلى آخر. كانت لطيفة معي اليوم!

– يا للحسرة يا صديقي البائس. يتنهد كونتس – علي أن أخبرك أنها ستتزوج ذلك الـ غريبل، التاجر من هامبورغ. ونحن، أنت وأنا، مدعوان إلى، الفطور، في قلعة بومبر سفيلدن، على شرفه.

يتوقف غوفمان، في منتصف الشارع، الذي تنزه فيه مع كونتس. إنه مهزوم. ينعطف كونتس باتجاه زقاق جانبي، دون أن يلحظ وضعه النفسي، ثم يكتشف أنه وحيد! يعود أدراجه، إلى الوراء، وينظر من الزاوية، فيرى غوفمان واقفاً في منتصف التقاطع، يتفحص النبات، الذي تحت قدميه. ويضغط بأصابعه على مقبض العصا، بشدة.

– أين اختفيت؟ يناديه كونتس.

– انظر يجيب غوفمان، مشيراً بالعصا، إلى عمق الزقاق. سيحترق المسرح الذي سَتُعزف فيه، موسيقاي، هكذا تلتهم النيران مسرح برلين للأوبرا.

يحترق الديكور ويشتعل قماش الستائر كطيور النار، في الفضاء تنهار الأغطية.

وعلى إحدى راقصات الباليه، تقع رزمة منها مشتعلة، وهذه بدورها، كالشهاب الساقط، تنتقل إلى دخان الكواليس. يهدر اللهب...

منذ تلك الدقيقة، غوفمان يصير خبلاً.

أنت تشرب، منذ الصباح. وهذه هي الكأس الثالثة! نحن مدعوان إلى الفطور! تقول السيدة غوفمان ذلك، وهي تتميز غيظاً وخوفاً.

ينطلق غوفمان وزوجته، في عربة مستأجرة، عبر الشارع. ويبدو له أنهما يمران بغابة، كل مرة عندما، يتحول الحوذي، إلى الظل، في الأزقة الضيقة.

تضع ميشا يدها على جبينه. وجهه رطب وبارد. يقبل يدها بحرارة، كما لو أنه عشيق...

تومض الذكريات، في عيني غوفمان...

الذكريات لم تعد ذكريات: يرى كيف كانت يوليا تسبح في البحيرة، ذات الماء الشفاف، كما لو أنها أوفيليا. ولكن لماذا تبتسم؟

لم يكن عليه أن يشرب هكذا. فثمة مراسم، واستقبال وتحيات، وضيوف يرتقون درجات السلم، كما في فرساي.

– «ولكنها ليست فرساي» يردد غوفمان لنفسه.

في مكتبه، حيث المرايا، تنهال عليه - كما في صندوق الدنيا - الانعكاسات. تعكس المرايا الوجه من الجانب والكتفين، وتسريحة الشعر. وغرفة يوليا فاخرة، إنها نسخة عن سان - سوسي.

- ولكنها ليست سان - سوسي!

- أليس كذلك يا سيد غريبل؟ يخاطب غوفمان العريس.

يقف عشرات «الغريبليين» متعجبين، ينظرون إلى رجل منفعل، قصير القامة، أشعث الشعر، له عينان صغيرتان حادتان وفم دقيق.

ينظر غوفمان إلى نفسه، في المرآة. تحاول ميشا مساعدته على السير نحو الآخرين.

- يا إلهي كم أبدو قبيحاً!

- ما تفسير زواج، الفتيات الجميلات، من الرجال القبيحين! يهتف فرِحاً.

شيء مستفز. سيما وأن العريس ليس وسيماً.

يحاول، كونتس، إنقاذ الموقف.

- نقدك الذاتي يتحول إطراء، للسيدة ميخايلين!

- نعم كانت ميشا، جميلة! يتمتم غوفمان.

ميشا الشابة، ذات العينين الزرقاوين، المرتدية ثوباً بلون الخوخ، من النسيج المشجر، والمنعكس، في المرآة، عشرات المرات، تختفي في القاعة المجاورة.

يأخذ وجهها بكفيه ويقربه من وجهه.

- عندما تنظر إليها هكذا فإن عينيها تتسع وتصطف، في رتل، من الأحجار الكريمة.

يقبل غوفمان يد زوجته

– أرجوك يا إراست... إنها لا تعرف ماذا تفعل

تنظر يوليا إلى غوفمان فيما يحاول الباقون التظاهر، بأن شيئاً لا يحدث. أخيراً يجلس الجميع.

– يمكنك أن تأخذ النبيذ، يخاطب كونس النادل. أحضرنا معنا نبيذنا. ثم إنه ليس لديكم مثله.

– قل لي – محاولاً إلهاء غوفمان، عن زوجته السيدة كونتس – أليست هذه قصة مرعبة. أقصد قصة كليست وعشيقته؟ أليست ملفقة؟

فهذه هي الحماسة المفرطة، والحدس، وبالطبع ما تمخض عنها من مشاعر!

شُربَ الكثير. والعريس يزداد ثمالة من دقيقة إلى أخرى. في حين أن غوفمان، خلافاً له، لا يأكل وإنما يشرب فقط ومع ذلك لا يثمل أبداً.

إنها قصة جد محزنة. وهي مرعبة ليس بالمعنى، الذي كان بإمكانك الحديث عنه، لو كنت تعرفها.

– إذن احكها لنا! تلح السيدة كونتس.

أصبح غريبل ثملاً تماماً، ومن وقت لآخر يجذب عروسه نحوه من خصرها، ويقبل عنقها.

تتوجه الأنظار الآن نحو غوفمان فلا تُرى تصرفات غريبل.

يحرك غوفمان كأسه على غطاء الطاولة، بشكل دائري، لا ينظر أبداً ويتظاهر أنه لا يرى شيئاً.

– أنت تعرف طبعاً كليست الذي ألف «كيتخن من غيلبورن». لقد أحب، هنرييت فوغل، الفاتنة وتجاوبت معه برقة وحرارة. وفي إحدى المرات شعرا أنه لا يمكن لهما أن يكونا سعيدين في هذا الكون.

وفي العام الماضي، في الحادي والعشرين تشرين الثاني، توجها إلى بوتسدام، حيث يوجد نهر تتوسطه جزيرة، مكان جميل ورائع.

تنزه كليست وهنرييت في الصباح، وفي مطعم على الشاطئ، كان فارغاً في ذلك اليوم العادي، سأل النادل أن يعد له طاولة قرب الماء. دهش النادل. ومع ذلك فعل الرجل ما طلب منه، وترك كليست وهنرييت وحيدين. سمع النادل وصاحب المطعم، خلال عدة دقائق، طلقتين متتاليتين. هرع الرجلان، مذعورين، إلى الشاطئ، ليريا المرأة الشابة وكليست، وقد استلقيا على أوراق الخريف.

الأطباق والفطور على الأرض، وقد أمسكت هنرييت بيدها طرف غطاء المائدة، الذي احترق من طرفه، غطى جسد كليست.

– على كل إنها مرعبة (همست السيدة كونتس)

كل يرى هذه القصة من زاويته غوفمان يوليا، وعريسها.

يتخيل غوفمان نفسه مع يوليا، مكان كليست وهنرييت. تجد يوليا صعوبة، في فهم من الذي يقف إلى جانبها تحديداً. يبدو لها أحياناً، أن كليست، هو غوفمان.

أما غريبل فإنه، ليس في وضع، يسمح له بتخيل أي شيء، بسبب النبيذ، وغياب الخيال.

– لنوفالس قول رائع – يتابع غوغمان –:

«مذاق الحب في الموت أحلى. الموت ليلة زفاف للحبيبين».

يقوم غريبل بحركة، قاصداً عناق عروسه. يوليا وبشكل لا إرادي ترتد عنه.

– هل لنا أن نمشي في الحديقة قليلا؟

قالت السيدة مارك

– بالفعل! ياله من يوم رائع!

قالت السيدة كونتس مؤيدة اقتراحها.

يقف الجميع. يتجه غريبل نحو عروسه ماداً لها يده. ولكنه يتعثر ويقع على وجهه، على أرض مفروشة فرشاً فاخراً.

لا يتمالك غوفمان نفسه: اتركوا، هذا الخنزير هنا، دعوه ينام.

تبدو يوليا شاحبة.

يثمل غوفمان بسرعة، يتناول زجاجة نبيذ، من على الطاولة، ويسكبها على رأس غريبل، ثم يقفز نحو قاعدة النافذة، قاصداً قاعة المرايا، ويجد نفسه في الحديقة. يقفز بعدها، إلى مقعد حوذي عربة أجرة، ويضرب الحصان بالسوط لتندفع العربة بسرعة. يقع في جدول ماء، يجري على مقربة من المكان، ويتطاير الماء القذر ليلوث كونتس وميشا، اللذين أسرعا لنجدته. ويغطي الماء القذر، هذه الأخيرة، من أخمص قدميها إلى أعلى رأسها،

منظره مخيف، مبلل، قذر، والدموع تملأ مقلتيه.

هكذا انتهت مأدبة الإفطار التي أقيمت على شرف عريس يوليا، السيد غريبل التاجر.

– سأهدأ... سأهدأ حالاً.

تمتم وهو واقف، ووحل الشاطئ يغمره حتى ركبتيه.

خويستوفر فيتيري

«لِمَ لست قريباً مني أيها العزيز غريبل! كيف كنا شبابا، وكيف كنا مسكونين بالثقة وكيف كانت تصرفاتنا ساذجة، ولكنها واثقة! الآن، يمكن أن تقودنا التصرفات الجريئة، إلى الجهد الضائع، إن لم تقدنا إلى الكارثة.

هل تذكر النزل النسائي، الذي كان قريباً من حديقة العم أوتو، حيث دفعنا الإعجاب ببعض النزيلات إلى التسلل إليه؟

بدأنا بالفعل نحفر نفقاً. بل حفرنا إلى نصفه تقريباً. وقد علم العم أوتو بطريقة ما بالأمر، ودفنت أحلامنا، بطريقة مشينة ورَدَمَ النفق، عامل استأجره حدائقي النزل، لهذا الغرض.

لكن الهزيمة لم تنل منا. فقد قررنا صنع منطاد، لكي نطير فوق الجدار المقدس.

كم كنا سعداء، حين طار، منطادنا في الهواء، وهو مزين بالأعلام، حاملاً إيانا إلى ضاحية قريبة من بورغوندسكي.

احتفلنا بالنصر تقريباً، ولكن وقعت وقتها كارثة! انفجر المنطاد، وسقطنا في منتصف فناء النزل. أحاطنا الناس، وبدلاً من أن نتماسك ونقف، كالأبطال، هربنا وأنت يا عزيزي، تحديداً، رحت تعرج، من كلتا ساقيك!..».

ابتسم غوفمان، ابتسامة حزينة. وهو يفتح ملف كالو. ألقى نظرة على محتوياته، وراح يضع رزمة أوراق، داخل أخرى. كم فيه من الخيال! بل إنه خيال مزوق جميل...

يعيش الآن في برج، في ألتنبورغ، لدى المحامي، ماركوس، وقد زين بنفسه جدران البرج، منذ عام مضى:

«هل تذكر عمي خريستوفر فيتيري؟ كان يأخذني معه كسكرتير، في أسفاره، إلى كورلنياديا، حيث بعض الأسر المتنفذة، التي ترعى القضاء في ممتلكاتها، وتحافظ على حق إصدار الأحكام. كم كنا يافعين وسعداء! وعندما أتذكر الآن تلك الأيام، أشعر بأنني غير واثق، من أن كل شيء، كان بالضبط، كما أتذكره والسنوات التي عشناها، تترك بصماتها، حتى على الحقيقة، مشوهة إياها (ومن يدري؟) فقد تزيد من تشويهها. فليس ثمة من يدري، كيف كان كل شيء، في الواقع.

الماضي مجهول بالنسبة إلينا، تماماً كالمستقبل، أليس كذلك يا صديقي؟

وعلى الرغم من أنني كنت في الثامنة عشرة، فأنا لا أستطيع أن أزعم أنني واثق من ذلك، لأنني أستعيد، الآن، ما مضى، وأنا يا للحسرة، أكبر من ذي قبل».

يقع قصر آل روسيتين، ليس بعيداً عن شاطئ بحر البلطيق، وقد توارثوه أباً عن جد، المكان الذي يحيط به، قاس وقاحل، ما عدا بعض الحشائش، الوحيدة، التي تنمو في الرمال، مترنحة مهتزة. وإلى جانب القصر، قرب جدرانه العارية، تلوح غابة من أشجار الحور، التي يكسوها الغسق دائماً، والذي، يمكن أن يجعل حتى الربيع المزركش، كئيباً.

وعندما وصلنا، إلى هنا عمي وأنا، سيطر علي حدس، لا يدعو إلى الارتياح. شعرت كأن نوعاً من التعاسة، مُعلَّقٌ، على القصر.

وقد اتضح لي، فيما بعد، أن حدسي هذا، لم يخنني. فكل شيء كان معتماً وغير مريح، في ذلك المكان. وجه المشرف على القصر، دانيال، شاحب، وهزيل ولكنه، مستعد دائماً، للتخفي، خلف ابتسامة ملفقة...

أما صاحب القصر، ذو الملامح الصارمة، فقد قيل عنه، إنه يتعامل مع السحر الأسود والفلك، منزوياً، في برج، قريب، من قاعة المحكمة.

كانت العلاقة بين صاحب القصر، ومشرفه، جد متوترة.

وأذكر أنني كنت أتريض، حول القصر، ورأيت كيف كان البارون رودريخ، يجلد خادمه بالسوط، وهو يقول له: أيها الكلب عملك، خدمة القصر وتدبير شؤونه، وليس دس أنفك، فيما لا يعنيك!

وعندما غادر البارون المكان، تمتم دانيال:

- على مهلك...

قد يبدو لي أنني غير متأكد، وأن خيل لي أنني سمعت. ولكن الآن فقط، أولي هذا المشهد، أهمية خاصة وذات دلالة.

بالطبع لم أصدق الثرثرة، حول السحر الأسود. بيد أنني، ذات مرة، تأكدت من صحة ما يُشاع.

حدث ذلك ذات مساء، ماطر، إذ جلس جدي قرب المدفأة، إلى طاولة غطتها الأوراق، والملفات وطفق، وهو يشرب، من حين إلى آخر، من كأس مصنوعة من الكريستال، يدون ملاحظات في دفتره.

جلست على الكرسي، وحاولت جاهداً أن أقرأ... خيم الهدوء على المكان. ولم يسمع سوى صوت طقطقة الحطب، وهو يحترق في المدفأة وكانت رياح الخريف، تسمع خلف النوافذ.

أغلقت الكتاب، أخيراً، وخرجت إلى الممر، الذي أضاءه شمعدان، موضوع في تجويف، مقابل الباب. تناولت شمعة، ساخنة، منه وتوجهت نحو قاعة المحكمة. وكان ضوء القمر ينسرب عبر النوافذ، ذات الأقواس، كاشفاً زوايا القاعة المظلمة، التي لم يصلها ضوء شمعتي.

غطت الجدران والسقف، تزيينات مدهشة، وكُسيت بخشب البلوط، الثقيل، ونُقشت عليها، ألوان مزركشة، ومذهبة.

من يجهل تأثير ذلك الجو غير العادي، والعجيب، بقوته المبهمة، في نفوسنا التي تطاول أكسل خيال، فتوقظه، ويبدأ يتحسس ما لا نظير له.

اقتربت من النافذة. وكانت الرياح تهز الأشجار، نصف العارية، ويُنير القمر البارد، السحب التي تركض، فوقه. في عمق الحديقة، بدا جدار الجزء البعيد من القصر، معتماً، وعليه ارتفع برج دائري، تحت السقف نفسه، الذي بزغ من كوة فيه، ضوء أزرق باهت.

عرفت، وبسرعة، برج البارون الفلكي، وتذكرت الحكايات التي ارتبطت، بذلك المكان الغامض.

– وقد يكون البارون، مصادفة، في برجه، مشغولاً بأعماله الخاصة، التي لا تصلها أعين الفضوليين.

لم أفكر طويلاً. عدت إلى الممر وتوجهت، نحو البرج، ومع أنني كنت أعرف الطريق، إلا أنني سرت ببطء، وقلبي يخفق، وأنا أصغي إلى سكون الليل، الذي خيم على القصر، غير المريح. توقفت فجأة، وبدا لي أن شخصاً ما يرتدي ملابس فاتحة اللون اجتاز الممر الذي خلفي، راكضاً، من فتحة باب، إلى آخر. وتوقفت طويلاً، قبل أن أهدأ وأتماسك، ومن ثم تابعت طريقي.

ربما أنني وبتأثير تلك الليلة الخيالية، والمغامرة المتوقعة وحضورها القوي، في ذهني، تراءى لي ذلك كله.

وأخيراً وصلت إلى هدفي. ثمة قاعة صغيرة يتفرع منها سلم، يقود إلى الأعلى. إلى غرفة دائرية، أقدس مقدسات، هذا البناء المظلم. وإذ اقتربت من الباب، الذي يفضي، إلى السلم. توقفت ثانية، لأصغي. لم يكن الباب مغلقاً. وهكذا استطعت، دون أن يلحظني أحد، التسلل إلى السلم. رفعت الشمعة، لأتمكن من المرور عبر الباب، نصف المفتوح. وفجأة ارتجفت، مذعوراً من المفاجأة.

ثمة شكل ما، جالس على كرسي، قرب طاولة ضيقة وطويلة، مديراً لي ظهره. لم يتحرك. وكلما طال انتظاري، شعرت أن سكونه غير طبيعي. وأخيراً قررت، وقد تجمدت خوفاً، أن أخطو بضع خطوات، باتجاه الكرسي. فلم يتحرك. وفجأة فهمت كل شيء. وتنفست الصعداء. وما تخيلته شكلاً لا يتحرك، كان مجرد معطف، واق من المطر، مُلقى، على ظهر الكرسي، وعليه قبعة من المخمل الأسود عليها ريشة بيضاء. تلكم كانت ملابس البارون. إذن فهو موجود هنا في الأعلى!

وأول ما خطر لي، بعد هذا الاكتشاف، أن أطفئ الشمعة، وقد فعلت ذلك، وعلى الفور. وإذ بقيت في العتمة، جلست على الكرسي ورحت أنتظر. ماذا أنتظر؟ لا

أدري ولكنني، كنت على يقين، أن شيئاً يجب، أن يحدث هنا، وبسرعة. وقد اعتادت عيناي، تدريجياً، على الظلام وأول ما لحظته، ومن خلال استيعابي للمكان، كان حزمة الضوء، الآتي عبر الباب، الذي يفضي إلى سلم البرج الفلكي. رأيت أيضاً شكلين طويلين في أسفل النوافذ الطويلة. كانا درع وخوذة، فارس، يقفان كتمثال يزين القاعة. وعُلِّقت أيضاً مرآة ضخمة، ذات إطار أسود، على الجدار بين النوافذ. وما رأيته فيها جعلني أشحب. رأيت نفسي في المرآة الضبابية، التي بدأ سطحها يتآكل، أمشي على رؤوس أصابعي في ممر القلعة، وفي يدي شمعة ساخنة! أي أنني انعكست في المرآة موجوداً. قبل بضع دقائق! نظرت إلى نفسي، وقد انعكستُ في المرآة، محاولاً ألا أتنفس. أعاد ذلك الانعكاس الطريق كله، من غرفتي إلى القاعة الصغيرة، حيث الكرسي الذي جلست عليه خلف الطاولة. أخيراً، كما أنا، جالس على الكرسي، أصبح الوضع مثل أي عملية انعكاس عادية. حركت يدي، فأعادت المرآة حركتي بصوت مسموع، متزامن مع حركتي. ربما يحدث شيء من هذا القبيل؟ وربما خيِّل لي؟

ولكن حدث ما لم يكن متوقعاً.

جلست على الكرسي، ورحت أنظر إلى المرآة ببلادة، وفجأة وأنا منعكس على سطحها المغبش، نهضت وتحركت بحذر نحو السلم. طبعاً جلست على الكرسي. دون أن آتي أي حركة، ومع تصاعد الخوف فقط تابعت انعكاسي.

هذا ما جرى، فيما بعد، وما رأيته في المرآة القديمة. فيما كنت أصعد السلم اللولبي، بحذر وجدت نفسي، أمام باب مزدوج. نصف الباب كان مفتوحاً اقتربت منه، ونظرت إلى الداخل. توقعت أن أرى أي شيء، إلا ما رأيته.

كانت قاعة، نصف معتمة، عملاقة، سقفها لا يصله، حتى الإشعاع القوي، الآتي من الفوليانت، القديم المكشوف، المُلقى على الأرض، وسط القاعة. كانت مليئة بالطيور، طيور القعقع، بيضاء وسوداء. كان عددها كبيراً، تطير من مكان إلى آخر، تقفز على الأرض، وتنتقل من عارضة خشبية إلى أخرى تحت سقف، لا يُرى.

وضعت في الكتاب ملاحظات حول الكلمات والأفكار التي كانت مفهومة بالنسبة إلي. توقعت أن أرى هنا، حتى البارون ولكنه لم يكن موجوداً.

كانت تنبعث من القاعة أصوات اصطفاق الأجنحة والدواليب، وصرخات حادة، تختلط بضجيج، مقرف ومغيظ.

هبطت إلى الأسفل، على السلم، باتجاه القاعة، ومن هناك، وعبر الممرات المظلمة، وقاعة المحكمة، فوجدت نفسي ثانية في الممر...

وفي الصباح الباكر، وجدت نفسي على الكرسي قرب المدفأة، التي هجعت نارها، أشعر بالصداع، وبأنني لم أنم.

كان يمكن لي أن أنسى المغامرة الليلية. (لأنني أيقنت في البداية بأنه كان مجرد حلم) لو لم تكن بقايا الشمعة، في يدي، تتساقط على الأرض.

تحققت التنبوءات الحمقاء. وهنا تذكرت أنني حينما كنت عائداً، جرياً، على السلم، باتجاه القاعة ألقيت نظرة عابرة، على المرآة الشريرة، ورأيت عليها لهباً يلمع. ولكنني، لم أكترث لما رأيت، لأنني كنت تحت تأثير انطباع سريع. الآن والذكرى تحضرني، أُسرعُ إلى الغرفة، إلى العمل،

حريق! صرخت. انهضوا! في القلعة حريق! وضربت بقبضتي يديَّ على الباب، الحديدي، القاسي.

ركض الخدم، وقد سمعوا صراخي، وخرج الجد، من غرفته، في ملابس النوم، ولم أستطع الشرح أو التفسير وإنما تابعت صراخي:

حريق! اسرعوا، اسرعوا الحريق هناك! هناك في البرج!

اندفع الجميع نحو البرج، وانطلقت خلفهم. وعندما اقتحمنا الغرفة، في الأعلى، في البرج المنكوب، قابلنا البارون بفظاظة. جلس إلى الطاولة، التي امتلأت بكتب الفلك وأطاليسه وعدته ونظر إلينا شذراً ثم سأل وهو يرفع حاجبيه مذهولاً:

مالكم؟ هل فقدتم عقولكم؟

حينما كنا نتنزه جدي وأنا في القلعة نهاراً وكان الطقس قد تحسن، وأشعة الشمس، أنارت جدران روسيتين الحزينة، نظرنا فجأة إلى البوابة واندفعنا نحوها. كانت ألسنة اللهب تغطي البرج الفلكي، وكانت الطيور السوداء – البيضاء، تدور فوقها.

وجدنا البارون وخدمه كلهم، في صالة الفروسية، على عتبة باب الاستقبال، المحترق، والذي من خلفه امتد الدخان، إلى أسفل آخر الأقبية كلها. نظر البارون إلي وقال: أنت أيضاً مثل دانيال تحشر أنفك، فيما لا يعنيك.

– ما الذي تريد أن تقوله؟ رد جدي مدافعاً عني. لم يجب البارون. في حين نظر الجميع إلي صامتين. انزعج دانيال، ورمقني خلسة، غامزاً بعينيه، ثم خرج من الصالة، وهو يقول:

– أجل، في قاع هذا البرج، يُختزن كنز كامل.

شيَّعه البارون بنظرة مليئة بالكراهية.

غطى الثلج، في المساء، الأرض وصبغها بالبياض وكذلك الأكمة والكثبان على الشاطئ.

وفي اليوم التالي، وجدوا البارون، في قاع البرج، الذي ما يزال الدخان فيه. وقد تدلت يده الميتة، من خلال الحجارة، والعوارض الخشبية، نصف المحترقة، وهي تمسك بالشمعدان الفضي. سحبوا جثة صاحب القلعة، من تحت الأنقاض، بصعوبة.

– كلا يا حفيدي ليست الأمور بهذه البساطة.

قال لي ذلك، ونحن نجلس قرب المدفأة، مساء، وقد أثر فينا، ذلك الشقاء، الذي حل بذلك البيت.

– لم يمت ميتة طبيعية.

– لماذا تظن ذلك؟

– وما الذي كان يعنيه البارحة، عندما تحدث عن أنفك؟

عوضاً عن الجواب سألني الجد.

لم أجبه. بل وماذا كان في وسعي أن أجيب؟ أن أحكي حكاية، لا يصدقها إنسان عاقل واحد؟

– أجبته قائلاً: لا أعرف – لم أفهم شيئاً ويبدو لي أنني لست الوحيد، الذي لم يفهم.

– كان علينا أن نسافر، يا حفيدي، ولكن يبدو لي أن وراء هذا كله، حكاية غامضة. وعليّ أن أنقب عن الحقيقة، والآن هيا إلى النوم... ثم قام عن الكرسي وهو يتثاءب.

وفي هذه الأثناء سمعنا وقع خطوات، في الممر، وما يشبه المناداة

– هس.. أشار إلي بإيماءة حذرة، وقفز نحو الباب، وفتحه بهدوء. هرعت إليه، وأطللت من الغرفة. رأينا، في عمق الممر، شكلاً منزوياً وفي يده شمعة.

– عجباً وعجباً قال الجد عندما اختفى ذلك الشكل، خلف المنحنى. ما قولك يا حفيدي؟

التزمت الصمت.

– ألا تريد أن تعرف. ما هذا وإلى أين يتجه؟

لم أشأ، أن أعرف ولكنني خشيت أن أبدو جباناً في عيني جدي، وعندما غيرت حذائي وانتعلت حذاء آخر خفيفاً، خرجت إلى الممر.

تهت طويلاً في القاعات المظلمة، والممرات الفارغة، ولم أقابل أحداً.

قال لي جدي، عندما عدت:

– ألا تعرف أين يمكن أن نلقاه. سأذهب بنفسي

– وهل تعرف أنت؟ سألته مدهوشاً.

ابتسم الجد وأخذ الشمعة من على الطاولة ومضى.

لم يعد بسرعة. وفي أثناء غيابه، استطعت تسخين «البونش» على المدفأة، منجزاً كل ما هو ضروري، من احتياطي الأعمال.

– يا حفيدي أنت متنبئ لقد قرأت أفكاري. قال ذلك وهو يصب شراباً ساخناً، كاد أن يحرقه.

ملأ الضوء السماوي الغرفة.

– هل رأيت؟ سألته بعد صمت طويل.

– ماذا؟ أجاب الجد الذي لم يفهم ما أعنيه

– ذلك الـ...

– رأيت شيئاً ما. بل إنساناً ما...

وفي صباح اليوم التالي، جرى حديث بين دانيال وجدي، كنت مصادفة، شاهداً عليه:

– اسمع يا عزيزي دانيال، ألا يبدو لك وأنت تعلم عن الحريق، في البرج، أن البارون المسكين، ما كان ليدخل من الباب، الذي لا يؤدي إلى أي مكان؟ أو يؤدي إلى السماء مباشرة.

– بل على الأرجح من الباب الأول

تمتم دانيال، وهو يتثاءب بشدة

– تريد أن تنام، أيها العجوز لعلك لم تنم جيداً في الليل؟

– حقيقة لا أدري. أجاب العجوز بجفاء.

نهض بصعوبة عن مقعد تحت الشجرة، ليس بعيداً، عن مدخل القلعة.

– سأذهب، لأتدبر أمر الغداء. قال ذلك وهو يتثاءب ثانية.

قال الجد لحفيده: اسمع لم لا تذهب وتتنزه، قبل الغداء، وتدعنا أنا والعجوز نثرثر قليلاً.

كان واضحاً، أن جدي، عزم على شيء أو خطط لشيء. على كل حال، إنه يعرف أكثر مني.

وبالفعل تركت العجوزين، واتجهت نحو القلعة.

وإذ درت حولها، عدت ثانية إلى البوابة، ولكن من الجهة الثانية. ووجدت الشخصيات الجديدة، لهذه الحكاية.

كانت ثمة عربة، شُدّت إلى خيول أربعة مسروقة، تقف قرب البوابة. كانت الأبواب قد فتحت. نزل الحوذي من العربة، ووضع السلم جانباً وراح يساعد شاباً يرتدي فروة، مصنوعة من جلد الدب، على النزول. وراح الشاب بدوره يمد يده إلى امرأة فاتنة شابة، ترتدي فروة روسية من جلد السمور.

اندفع الخدم راكضين، من الجهات كلها. وظهر جدي أيضاً، واقترب من العربة، مقدماً نفسه للشاب:

لي الشرف أن أبلغكم عن الحدث المحزن وأتقدم إليكم بتعازي القلبية. ومن الواضح أنني سأتولى مسألة الإرث.

كان أولئك ملاّك روسيتين الجدد. الابن الأكبر رودريخ، والملقب بـ غوبرت، وزوجته سارافينا.

وأنا بدوري حاولت أن أبذل ما في وسعي، وقدر الإمكان، ليبدو الأمر ألطف.

قال جدي: هذا حفيدي. وهذا ارنست صديقي، ومساعدي الأمين في أعمالي. سكرتيري

كانت يد سارافينا، التي أخرجتها من جيبها، ناعمة ودافئة.

سُجّي جثمان الفقيد، على طاولة عالية، في صالة الفروسية، تلك التي كان لها سابقاً، مدخل يؤدي إلى السلم، وهذا بدوره كان يؤدي إلى البرج.

وقد وضع في مكان، هذا الباب، مقعد جديد. كانت تلك فكرة دانيال، فَتْحَ كوة في الباب. وما تزال المرآة، في مكانها، معلقةً على الجدار، بين النوافذ.

وقف الجميع أمام الجثمان. المُلاّك الجدد، جدي، دانيال وأنا، مستعدين لتأدية الواجب الأخير.

كان البارون يرتدي (كما ذكر في وصيته) رداء أسود بأزرار فضية، وأكمام بيضاء، ثلجية مزركشة بالدانتيل.

ونظرت إلى المرآة، فلم ألحظ شيئاً غير عادي.

ولكن، حقيقةً، ولثانية واحدة، بدا لي أن لجثمان الفقيد، المنعكس في المرآة، عينين مفتوحتين. وقد عزوت ذلك، إلى الغسق، والرطوبة، الناتجة عن مزيج الزئبق والمعادن.

ساد جو ضاغط، أثناء العشاء، فالسيدة سارافينا خرجت، بعد أن شكت من صداع أصابها. تبعها حالاً البارون الشاب، لأنه لم يرغب، في أن يتركها وحيدة في مزاج سوداوي.

وحينما أصبحنا، جدي وأنا، وحيدين، سأل جدي دانيال، الذي ظهر للتو على الباب، وهو يرتدي القفازات البيض: والآن ألا تقول لي، أيها العجوز، كيف حدث ذلك؟

نظر دانيال بوجوم، إلى جدي، وقال بصوت خفيض: لا أدري لماذا تتعقبني، يا سيدي

(كان قد عرف أن جدي ليس مجرد تَحرٍ وإنما قاض، والذي بسبب معرفته القديمة بالمرحوم البارون، تولى أمور الوصاية والإرث، وليس الأمور القضائية فحسب)

– تريد لي أن أحدثك، ما لا أعرفه، أو ما لم يكن.

ما الذي تطلبه، بعد الأكل، كهاضم: فواكه، جبنة؟ بوظة مع الليكور؟ قهوة؟

كان وجهه شاحباً مرهقاً، وفي عينيه خوف.

– أريد جبنة. أجاب جدي باقتضاب وتنفس. وحينما خرج دانيال، وهو ينحني، أضاف جدي:

– لا ينبغي ترك هذين الزوجين الرائعين هنا

– وهل تعتقد...

– اسمع يا حفيدي. لعلك حكيت لي حكاية بدائية، عن أن المرحوم، ضرب أحد خدم القصر. ويبدو لي أيضاً أنك ما تزال تخفي عني أمراً ما.

صمتُ وتركتُ المائدة، وجلست إلى البيانو أعزف. هدأت الموسيقى أعصابي قليلاً. أحس الجد بي.

– لا أعرف من ستكون – قال متأملاً – وصوت الموسيقى، يتلاشى، تحت قبة القاعة، ذات الإضاءة المزدوجة، حيث تناولنا الغداء – لن أسمح لمحامي المستقبل، بالتحول إلى الموسيقى.

فالموسيقى يمكن أن تؤثر تأثيراً سلبياً، على عقل ومنطق موظف المستقبل، ذي المكانة المرموقة والعقل السليم. ابتسم منهياً كلامه.

– أكثر ما أحتقر في الكون، العقل السليم

انفجرت غاضباً، وقفزتُ، في الحال، من على الكرسي. كانت السيدة سارافينا، تقف بالباب.

– وليس في ذلك ما يدهش. فكل شيء يعتمد على وجهة نظر الإنسان. والعالم مبني هكذا، تكفي قناعتك حول هذا الأمر. فأنت موسيقي رائع. مرحى لك!

دانيال

ظهر البارون الشاب على الباب.

– في القلعة الجو كئيب. أظن أنه من الأفضل أن نجلس هنا، قرب النار، في وسط إنساني، نتجاذب أطراف الحديث، على أن نجلس صامتين في المكتب نصف المعتم، ونفكر بعمق، ناظرين إلى الجدران المتداعية.

– ناقشنا موضوع، مستقبل حفيدي. قال جدي وهو يقدم الكراسي، للبارون الشاب وزوجته، ويحركها باتجاه النار:

ما رأيك يا بارون، ما الذي يمكن أن يتمخض عن هذا الفتى؟ فأنت، كما تبدو لي، إنسان ذو رؤية ثاقبة.

نظر إلى البارون باهتمام

– سيصبح بالتأكيد مؤلفاً موسيقياً! أجابت البارونة

– لست ثاقب الرؤية، إلى هذا الحد. كما تظن. ولكن يوجد ما يسمى بالملامح الجسدية – وملامح وجه حفيدك، تقول لي، أن مستقبله، سيكون مرتبطاً، بوظيفة حكومية مرموقة.

– مرحى! ثنّى الجد على كلامه، وصفق بكفه. مرحى. كان يمكن أن يكون ذلك رائعاً، لولا قناعتي المُرَّة، بأنه وبسبب خياله الواسع، سيغدو مؤلفاً! وصاحب خيال بائس، لا جدوى منه!

- ولِمَ بائس؟ ابتسمت السيدة سارافينا.

- أعوّل على موهبتك - تابع جدي، حاشراً إياي في الزاوية نهائياً - وتجربتي في الحياة تقول لي إنه كلما كان الإنسان أذكى، كان أفقر والبؤس، في هذا السياق، يعتمد اعتماداً مباشراً على المقدرة.

- أفهمك. ابتسم البارون. ثم توجه إلي قائلاً: لا تقلق أيها الشاب. فولي أمرك، ببساطة، يظهر الآن موهبته التربوية. ولعله يريدك أن تسير على خطاه.

كانت الساعة تشير إلى منتصف الليل.

- قال الجد: أخذنا الوقت!

- قالت البارونة: أصبح المكان مريحاً.

طالما أن الوضع هكذا، احضر لي، يا حفيدي، غليوني من غرفتنا، وسأدخن هنا إذا تفضلت البارونة، وسمحت لي بذلك.

- طبعاً! وافقت السيدة سارافينا. ولكنها سألت:

ألا تخشى السير، في هذه المرات، ليلاً؟ ثم ابتسمت

حاولت أن أبتسم أنا بدوري، ولكنني تذكرت كل ما جرى لي، في القلعة، في تلك الأيام. والأصح، في تلك الليالي، وأنا أخرج من المطعم صامتاً.

«هذه القلعة مكان قبيح..!» فكرت وحاولت أن لا أنظر حولي، نزلت لأتجول في المرات، المضاءة إضاءة خافتة، وعوضاً عن أتوجه حالاً، إلى الغرف المخصصة لنا جدي وأنا، اتجهت، لسبب ما إلى صالة الفروسية، توقفت لهنيهة تذكرت فيها صاحبها السابق والمرايا القديمة، المغبشة، بين النوافذ. هكذا ببساطة وجدتني مشدوداً إلى هناك، ولم أعارض ذلك.

في هذه المرة، وأنا أدخل صالة الفروسية، من كوة الباب، إلى البرج، لم أتجاوز العتبة، لحظت مقعداً خشبياً واسعاً، جلست عليه ورحت أنتظر. خيّل إلي أن المغامرات، التي بدأت هنا، ليلة قبل البارحة، لم تنته، ولم أكن مخطئاً.

وقف البارون، مرتفعاً، على طاولة عالية. كان وجهه أبيض، وسط الظلام، وكان يشبه قناعاً من الجبص. كان الليل، هذه المرة معتماً، والسحب المنخفضة تغطي السماء. وخطر لي فجأة أن ظلاً ما برق في المرآة، أو بعبارة أدق انعكس في المرآة.

أنعمت النظر فيه. فرأيت البارون العجوز، واقفاً أمام كوة باب، البرج المحترق، ينظر غاضباً إلى الأسفل، حيث بقايا مختبره المشؤوم، ممسكاً شمعداناً عليه شموع ساخنة. نهضت قليلاً من شدة التوتر. وفي المرآة، استمر دفق الحياة الهادئة الغامضة، يحكي قصة أشياء، لن يعرفها أحد إلا أنا. رأيت دانيال وهو، يحاول أن يتحرك خلف البارون بحذر، مقترباً منه. كان يرتدي قميص نوم، ولا يضع على رأسه شعراً مستعاراً. وقف لبرهة، وراء سيده، ثم نظر في الاتجاهات كلها، وألقى بنفسه على البارون، ودفعه من ظهره.

لم أستطع نسيان تعبير وجه البارون رودريخ، الذي ومض أمامي في المرآة، المحية. كانت عيناه، تنطق، خوفاً، وكراهية وشؤماً.

وقف دانيال، أو انعكاسه، في كوة البرج، ونظر إلى الأسفل، إلى ضحيته.

هذا ما كان! هكذا انتقم دانيال من سيده، لأنه ضربه بالسوط.

عندما عدت إلى المطعم ومعي الغليون، سألني الجد ضاحكاً: أين كنت طوال هذا الوقت؟

– كنا أنا والبارون، ننوي الذهاب لإنقاذك.

تهت مع حكاياتهم عن كل شيء..

والبارونة لم تنتهِ.

سمعت أصواتاً، من المر، همهمات، مناداة ووقع خطوات. تجمدنا في مكاننا. والخطوات صار وقعها أهدأ ثم ابتعدت.

انتزع البارون مسدساً من الحائط، كان معلقاً فوق المدفأة. اختبره، ليعرف فيما إذا كان جاهزاً أم لا، واندفع إلى المر. ولكنه توقف عند العتبة.

قلنا إنه عند اختبار المسدس، الرصاصة العادية لا يمكن أن تسبب ضرراً.

نحتاج الفضية! مع هذه الكلمات، نزع من ردائه الأنيق، زراً، وفك سلك التنظيف، ثم دفعه في السبطانة. بعد ذلك غادر القاعة، بطريقة حاسمة.

– توقف يا بارون! انتظرني! لا.. لا ترتكب حماقة! ولكن الكلام جاء متأخراً.

وجد البارون، دانيال، عندما كان هذا الأخير، يقف في صالة الفروسية، وهو يتألم من أظافره التي جرحتها الحجارة الموضوعة، على الباب، الذي يؤدي إلى البرج.

لم يفكر البارون ولم يتردد، بل أطلق النار. وسقط دانيال.

وفي الوقت نفسه، ومع إطلاق النار، الذي سُمِع دويه في أرجاء القلعة كلها، انكسرت المرآة القديمة، وسقطت على المرحوم البارون، وتناثرت قطعها، وكشفت عن الإطار الفارغ، المشدود إلى خيوط عنكبوت.

وعندما اجتمع الكل حول جثمان دانيال المقتول – قال الجد للبارون، الذي أصبح وجهه أصفر كالشمع، والذي وقف ومسدسه في يده – كان يمشي وهو نائم. هذا المرض أنهكه. وقد تكون – بالمناسبة – على حق.

استلقى البارون، الذي انُتقِمَ له، في مكانه المرتفع. وبدا لنا، على ضوء الشموع الخادع، مبتسماً.

في صباح اليوم التالي، وبعد مراسم، دفن البارون العجوز، ودانيال، غادر الجميع روسيتين. غادر البارون وزوجته عائدين إلى كورلياندیا، عدنا جدي وأنا إلى بيتنا، متمنين، في أعماقنا، ألاّ نعود إلى هنا، حتى لو طلبت البارونة، سارافينا، منا ذلك.

«هذا ما جرى معي ومع جدي منذ حوالي ثلاثين عاماً مضت، يا عزيزي غيبل. أليس هذا موضوعاً لقصة طويلة؟

أعرف أنك، في الأحوال كلها، لم تصدق حكايتي ولكن رغم ذلك، عليَّ أن أحكيها حتى النهاية.

قد يكون الحديث مجرد سخافة، قبل تحطم المرآة المعلقة، في صالة الفروسية. لقد وجدت البارون، قبيل إطلاق النار المشؤوم، واستطعت النظر إليه. وهل تدري ماذا رأيت؟

رأيت فتاة رائعة، ذات شعر أسود، في وسطه شريط سماوي. ابتسمت لي ونظرت نظرة رقيقة وحنونة. لعلك لا تصدق، ولكنها كانت يوليا!

وكانت المرة الأولى، التي رأيتها فيها، قبل عدة سنوات. أعرف ما ستقوله لي: «أكتب هذا كله وقدمه لإحدى دور النشر».

لو كان، في مقدورنا، هكذا بيسر وببساطة، أن نتحرر من الذكريات!

وقد يكون من الأفضل، التخلي عن هذا كله، نهائياً والعمل موظفاً؟

كم سيكون الأمر سهلاً، مع ضمير نائم، ودقة غبية ودون أي إيمان بالعجائب!

والآن أدعك لأذهب مع الأصدقاء، لنشرب... وداعاً!»

ليس بعيداً عن مسرح الأوبرا، والشقة الجديدة، على زاوية تاوبنشتراسي وشارلوتي – شتراسي، وفي حانة نبيذ، ضيقة، ولكنها مريحة، وشموع في مصابيح على الطاولات، يجلس غوفمان، منتظراً أصدقاءه، وقد أنهى زجاجة النبيذ الثانية. أمامه رزمة أوراق ومحبرة وفي يده، قلم.

على الأوراق، تتوالى الكتابة والرسوم ومقاطع من جمل موسيقية، ونوطات مُسَطَّرة.

يستمع إلى الموسيقى، التي تعزف داخله، موسيقى حزينة بل وتراجيدية، تذكره، بطريقة ما، بموسيقى موتسارت الجنائزية.

يمكن متابعة أفكاره، من خلال الرسوم التمهيدية السريعة، التي تغطي بريده، الممهور، بالحروف الأولى، لاسم الفندق المجاور. وهي أفكار ليست مريحة، وكأنها، كلها، كحبات خرز في خيط، تنتظم، في موضوعة حزينة – احتفالية، كما لو أنها، تجسد مشاعره ومزاجه.

القبو شبه فارغ، بصرف النظر، عن كون أبوابه تنادي مفتوحة، والنوافذ مزينة بشكل مريح، بشموع مضاءة، تحت زجاج زهري.

هطل المطر للتو. والعارضة ذات القوائم الأربع، على الرصيف، زرقاء، تلمع تحت أوراق شجر الزيزفون المستديرة.

يمسح الخادم الذي يرتدي سترة قرمزية، من الجوخ، بطرف الفوطة، مرآة، خلف طاولة، عليها باقة ورود حمر ذابلة.

تنتصر موضوعة الشجن الثقيل، مؤكدة ذاتها.

يخطط غوفمان، بالحبر الأسود، آخر الأوراق ناصعة البياض:

وأخيراً، الأصدقاء الذين طال انتظارهم، ينهض غوفمان واقفاً، مرحباً بهم، على عتبة البيت.

السيدة إيفنيك - مقبلاً يدها - السيد غيتسيك! والسيد شاميسو! والسيد غلوك! يمد يده مرحباً.

ينظر الجميع، إلى غوفمان، الثمل مدهوشين وهو ينحني، أمام الباب الفارغ.

يشربون نخب نجاح أوبرا «أوندينا»

- عملك «أوندينا» يا مايسترو يلاقي النجاح اليوم، فليستمر هذا النجاح وإلى الأبد. فيفا! يرفع غيتسيك كأسه ويشرب. يحذو الباقون حذوه.

يصب غوفمان لنفسه كأساً، ويقف، ليلقي كلمة.

- شكراً لكم. أنا سعيد لأنكم تشاطرونني، بإخلاص، نجاح هذه الأوبرا. ولكن أي سخافات! فهذه الأوبرا كتبها وأخرجها أوتفيريلو. دعونا نشرب نخب شيء آخر. نشرب نخب روحنا التي تنضج فيها، الحقيقة التي نفهمها! الحقيقة المفهومة، أصواتاً، وكلماتٍ، ونسيجَ لوحاتٍ، لا نهائية ومطلقة!

وفقاً للطريقة التي سيتحدث بها غوفمان، سوف يشرب من كأسه. ويصب فيه من الزجاجة، التي يضعها على الطاولة الخادم الفطن. وبانتهائه من كلمته، يغدو وحيداً.

تختفي، في البداية، الفاتنة السيدة إيفنيك، وبعدها شاميسو، ثم غيتسيك.

– لدينا شخصيات فظيعة، مشاكة، وسخيفة. سطحها خشن وغير مشغولة جيداً. وإذا أمررت يدك عليها، بغير حذر، فالأرجح أن تترك فيها، شظية.

نحن ندعو الكثيرين أصدقاء، ولكن القلة تمثل ذلك الوجه الروحي، والتنوير، الذي يجعلنا، أفضل مما نحن عليه.

هل نحن سعداء؟ كلا. لأن السعادة شأن صغير بالنسبة إلينا، نحن الذين نسعى إلى احتواء، ما لا يمكن احتواؤه. هل نحن راضون؟ كلا. لأننا متعطشون دائماً، لاكتشاف المزيد، والإحاطة بكل ما حولنا. ولكن هل نعرف الكثير مما يحيط بنا؟ وهل يمكن أن نثق بحواسنا؟ خذ على سبيل المثال زجاجة فارغة، خضراء، باردة وفي قاعها بضع قطرات، نبيذ. هذا كل ما نستطيع أن نقوله عنها، لأننا لا نملك سوى خمس حواس! يا للحسرة! كيف يمكن أن نعرف ذلك العالم، إذا كنا لا نصل إلاّ إلى القليل، عن طريق حواسنا البائسة؟ ماذا يمكن أن نقول عنه، غير أن له رائحة ولوناً وحرارة ويمكن أن يكون حلواً أو مراً؟ لا يمكن لنا أن نعرف عنه شيئاً.

نحن حثالة الحثالات، نحسب أن العالم هو ذلك الذي نراه!

وإذا كان هذا العالم يملك مليارات الخصائص الأخرى، التي لا يمكن لنا أن نعلم بوجودها؟!

ما الذي يمكن أن يفعله، في مثل هذه الحالة، الإنسان البائس! من يبصر ذلك المثال الإلهي، الذي يجعل الإنسانية سعيدة؟

متناغم ومتكامل! قوي رنان إيقاع الأصوات والآلات معاً. الوهم الإلهي للكمال المطلق – الفن! لنشرب نخبه!

مرحى!.. دوى صوت، مليء بالسخرية، وتبعه طرق قلم – استُلّ من المحبرة – على سطح الطاولة، كما لو أن الموسيقيين يطرقون – متضافرين – على حاملات النوطات، مباركين المقطوعة التي عزفوها للتو، عندما يخرج مؤلفها، وينحني أمام الجمهور.

يلتفت غوفمان حوله. لم يبق على مائدته إلا هو وغلوك، في ردائه الأنيق.

مرحى! أرجو المعذرة. ومن تكون أنت؟

أنا متحمس، يبجل ذكرياته، أو حزين، لا يذكر وشائج القربى بالوجود، تلك المحبوسة في زجاجة وجوده؟

– تبجيل الذكريات؟ تعجب غوفمان

– طبعاً. تذكر كيف عَبَّرت مدام دي ستال بطريقة رائعة. «أفضل جزء من الموهبة، ذلك الذي يتألف من الذكريات».

– أجل هكذا قالت، وهذا يشبه الحقيقة.

يشرب غوفمان بقايا النبيذ، ويطلب من الخادم زجاجة أخرى، ويجلس قبالة، الضيف الذي لم يَدْعُه أحد.

– قرأت عملك الأدبي الأخير – يقول غلوك ذلك بتعالٍ وهو يصب النبيذ في الكؤوس – عملك يبدو أقرب إلى نظرية الحب الصوفي؟

– لا أعتقد – يجيب غوفمان – أردت فقط، إدخالك في جو انطباعات طفولتك والنظر في إمكانية استيعابك الحكاية كحكاية. ولتحقيق ذلك لابد من أن تعود إلى الطفولة، وتصبح، طفلاً، ثانية.

– ولكن بالنسبة لي الأمر منتهٍ، على الرغم من أنني أذكر بعضاً من طفولتي.

– حقاً؟

– نعم أذكر معلمي، الذي كان يضربني على أصابعي بالمسطرة، عندما كنت لا أحصل على العلامة المطلوبة. هل تصلح هذه الذكريات، للعودة إلى الطفولة؟

– بلا ريب. فجروح الطفولة، لا تنضب ولا تندمل ولا تموت ولا تغدو أبداً ملك الإنسان البالغ.

– ربما.. ربما.. وفي نهاية المطاف تلك الأفراح والأتراح، التي تلازم النضج الإبداعي، والتي تحدثت عنها، منذ قليل، بكلام جميل، تنهض على الآلام، كلياً وجزئياً. وبالمعنى المباشر، وغير المباشر. وهكذا ومن حيث الجوهر لا أؤمن بأن الحياة شيء ذو قيمة، إذا اضطررنا لدفع ثمن التنوير، غالياً.

– كلا. كلا، يعارض غوفمان بحرارة. الحياة، والحياة فقط مهما كان الثمن!

– نعم – يقولها غلوك باحترام – ويسعل.

– يبدو أنك مريض؟ يسأله ويصمت بعض الوقت.

– نعم – يجيبه غوفمان، رافعاً ناظريه، إلى محدثه. لدي....

– أعرف – يقاطع غلوك غوفمان – أعرف

– نعم يا صديقي الشاب، لا يمكن إلا أن أتفق معك، عندما نتحدث عن الأصدقاء، كما لو أنهم يختنضون بعد كلماتك. حقاً! يأتي حين من الدهر، عندما لا

يُكتسب الأصدقاء، وإنما على العكس من ذلك، يُفقَدون والأصدقاء، ليسوا مجرد شراب. على الإطلاق ليسوا كذلك. الصديق هو الذي يستطيع أن يضحي من أجلك، بكل شيء.

وليس من أجل استعراض خصائص صداقاته، وإنما التضحية بهدوء، بحيث لا يعرف أحد عن هذه التضحية شيئاً، أبداً. معرفة هذه التضحية، تظْلم وجودنا. فهل لديك مثل هؤلاء الأصدقاء؟

غوفمان - ٢

كلا. نعم، أعتقد لا. يقول رجل يجلس حول الطاولة المجاورة. رجل، يرتدي رداء – مستشار وزارة العدل – خِيطَ من الذهب.

يتناول كأسه، ويجلس إلى طاولة غوفمان وغلوك.

– هل تسمحون؟ يسأل من قبيل التهذيب.

– في ردائك هذا تشبه الجنرال. قال غوفمان مبتسماً، وهو ينظر إلى الرداء المزركش.

– سنتحدث الآن مع المايسترو بالدور.

يعلن الرجل – المعلوم – المجهول.

كلمة منه وكلمة مني. ولكن بنزاهة ليكون كل شيء، عادلاً.

– الحقيقة لدي صديق طفولة...

– ولكن مصيره مختلف عن مصيري – يتابع الرجل ذو الرداء المزركش الفاخر – الأمر الذي قد لا يساعد على التقارب، بيننا، روحياً.

– لعلك تطلب الكثير من الصداقة ألا تكفي، إمكانية بسيطة، لكي يسكب الإنسان روحه؟ يضحك غلوك بمرح. اسمحوا لي أن أطرح عليكم سؤالاً واحداً. سؤال جد مهم بالنسبة لي، أنا الذي أرغب في فهم أفضل لكم.

– يجيب غوفمان: تفضل. سأجيبك على أي سؤال.

– قل لي إذن، ما الذي يخيفك أكثر من أي شيء آخر في هذه الدنيا؟

– الجنون. يقول شبيه غوفمان ذو الرداء.

– والموت أيضاً. يضيف غوفمان.

– الموت لا يستحق الخوف أبداً.

– هذا بالنسبة لك أنت الذي بلغ الخلود – يقول غوفمان ساخراً

– الخلود؟ وما هو الخلود؟

– لا أحد يعرف ما هو الخلود. يقرر غوفمان ذو الرداء

– يتوجه إليه غوفمان قائلاً: بالإضافة إلى ذلك، لماذا تعيد ملامحي. أنت لا تقدر على شيء.

– أقدر على كل ما تقدر عليه أنت، طبعاً وثمة شيء آخر

– اسمع من فضلك! يدعو النادل إليه.

احضر لي من فضلك جزرة نيئة.

– جزرة يا صاحب الفخامة!

– نعم جزرة نيئة واحدة.

يخرج النادل وهو يهز كتفيه. يحضر جزرة، في صحن، وقد غُسلت جيداً، ثم يبتعد، مظهره يدل على الكبرياء. يتناول غوفمان، ذو الرداء، سكيناً ويقطع الجزرة إلى دوائر.

– ما هذا؟ يسأل مشيراً إلى الجزرة المقطعة؟

– جزرة. يجيبه غوفمان.

– كلا – يجيب شبيهه وهو يضرب بيده على الطاولة، فتتحول دوائر الجزر إلى ذهب.

– فكرة الحجر الفلسفي، تكمن في أنه لا يقع أبداً في يد الإنسان.

– وأنت، من أنت؟

– سيد غوفمان! يخرق المايسترو الوحدة، صارخاً فيظهر، على الباب، رجل عجوز، يرتدي زياً خاصاً، بالخدمة.

حريق! المسرح يحترق!

تلتهم النيران بناء المسرح. لا مجال للاقتراب منه، فالحرارة مرتفعة. الخيول المحترقة، تنفر، مُحطمةً عدتها. تتآكل النوافذ الوردية. وسط الدخان، يتوزع سرب حمام. الوقت ليل تدخن الجدران المحترقة. وتبدو أطر النوافذ معتمة، في سماء ذات نجوم، لا غيوم فيها.

غيبل

في مكتب غوفمان، في برلين، عتمة: الستائر مسدلة لكي لا يزعج الضوء المريض، الذي يجلس على كرسي، قرب المدفأة، تحت قدميه قاعدة خشبية، وعلى كتفه شال.

يزيح غيبل الستائر قليلاً، ويجلس قرب النافذة. إنه لقاؤهم الأخير. سيسافر غيبل مساء اليوم.

– من أنا؟ ألا تستطيع أن تقول لي؟ يسأل غوفمان

– أنت صديقي، ولا أريد فراقك. سيما الآن وأنت لست في صحة جيدة.

– بالطبع. موسيقى؟ فنان؟ كاتب؟ أو ببساطة مستشار اللجنة المستعجلة؟ ألا يمكن أن تبقى؟ ولو ليوم واحد!

– مستحيل فالأمر ليس في يدي.

– لا أحد يملك زمام أمره....

– هل سمعت: يوليا مارك هجرت غريبل افترقا. غوفمان لا يبدي رد فعل. يتريث قليلاً.

– اعطني... افتح الصندوق الأيمن، وناولني مغلفاً أزرقَ. يجب أن يكون في الأسفل تحت الأوراق.

ينهض غيبل، يتقدم من المكتب، ويعود ومعه رسالة.

– اقرأ. ما كتبته أنا للدكتور شبييرو. اقرأ بصوت عالٍ. ابدأ من الصفحة الثانية لأن ما قبلها كلام فارغ. مجرد إعجاب وما شابه.

– إذا كنت تصر...

– تخطر لي الآن فكرة. فنحن لم نتشاجر أبداً! خلال خمس وثلاثين سنة! اقرأ. اقرأ. انتظر قل لميشا أن تحضر لي بونش.

– أتوسل إليك أن تتأخر.

– اقرأ اقرأ من الفقرة الثانية.

– «لك أن تتخيل – يقرأ غيبل – تحدثت طويلاً مع فانيا تارنوفا. وفهمت...»

– ومن هي تارنوفا؟

– عانس بائسة، من هامبورغ. تكتب روايات مخيفة...

«وفهمت، يتابع غيبل –أنها مع الأسف – أرادت أن تخفي عني مرارة الحياة، والندم على الشباب الذي ضاع. كل ذلك غير وبقسوة، نفس يوليا. لم تعد القصيدة طرية، ناعمة، طفولية بريئة. ربما أن كل شيء يتغير الآن. عندما غادرت المقبرة، المليئة بالأزهار، التي أحضرها المشيعون، شعرت أن الفرح والأمل دُفنا...».

– أرجو المعذرة – يقاطعه غوفمان – أنت موظف وقد حققت الكثير.. هل فعلتُ الصواب، عندما – وأنا كبير المستشارين – استدعيت ذلك الأبله، المنافق، فون كامبتس إلى المحكمة؟

– كيف تقول ذلك...

– حسناً لنقل، ليس أبلهَ، بل مجرد منافق، هل أنا مصيب أم لا إذ أدعوه إلى التحقيق، وفقاً للقانون؟

غيبل، مبتسماً:

– بقدر ما أنت مصيب، بقدر ما هم مصيبون بإعفائك من عضوية اللجنة المستعجلة...

– كان علي ألاّ أقبل، ومنذ البداية، تلك القضية الصاخبة! فأنا لست موظفاً! أنا... – يتنفس غوفمان بعمق – أنا حتى لا أعرف من أنا. من أنا؟ تيودور؟

ينهض غيبل واقفاً، ويرتب الرسالة التي قرأها، قبل أن يجيب.

– لا حاجة لمزيد من الكلام. أخشى ألا يستطيع أحد الإجابة عن هذا السؤال البسيط...

ماذا تفعل؟ فأنت لم تكمل القراءة! كلا! كلا! كلا! بالتأكيد يجب أن تقرأها! يجب أن تعرف! فأنت على سفر! يحاول غوفمان الوقوف، ولكنه لا يقوى على ذلك

– أنت تعلم – يقول بحزن – أنا أيضاً أرحل بطريقة ما، إلى حيث تقود العيون.. أو أذهب سيراً على الأقدام... أقيم في فندق ريفي ما. أشرب «البونش» اقرأ. لماذا لا تقرأ؟

يخرج غيبل الرسالة من المغلف ثانية، وهو يبتسم:

– أين توقفت؟ هنا... «إذا كنت ترى ذكر اسمي، أمام عائلة مارك، ممكناً ومريحاً، أخبرهم عني. قل ليوليا، في اللحظة التي يطلع فيها شعاع الشمس المرح،

قل لها إن الذكريات، ذكرياتي عنها، ما تزال حية فيَّ، ولكن هل يمكن أن تكون ذكريات بسيطة، تلك التي تمتلئ بها الروح، والتي صنعتها قدرات روحية سامية، والتي تجلب لنا أحلاماً رائعة عن السعادة، والتي تعجز أيدينا المصنوعة من لحم ودم، عن الإمساك بها والاحتفاظ بها؟»

يجلس غوفمان على كرسيه، وعيناه مغمضتان، ويبدو أنه نائم...

«قل لها – يدوي صوت غيبل – أن صورتها السماوية الطيبة، وكياستها الملائكية والأنثوية، وبراءتها الطفولية، والتي تضيء عيني، في عالم الجحيم المظلم. في هذا الزمن الشرير، قل لها أن صورتها لا تغادرني، حتى الرمق الأخير. وعندها، عندها، وأخيراً روحي المنعتقة، تنحل في طبيعة وجودها الحقيقية. تلك كانت رغبتها، أملها، وسكينتها!»

يوليا مارك

مساء خريفي، هادئ وجو بارد. الشفق يشبه قوس قزح. الأشجار التي تخللتها، أطياف سوداء، كما لو أنها رسمت بالحبر الصيني، تقف على طرفي الطريق. أضيئت الأنوار الأولى، في نوافذ بيوت القرية البعيدة.

يمشي غوفمان على الطريق. في يده عصا ثقيلة. يمشي ببطء، ويمكن الاستنتاج، من توقفه ونظراته الطويلة، إلى أسفل قدميه، أنه ليس في عجلة من أمره.

القرية... بيوت منظمة. أرصفة نظيفة. قناطر غُسلت جيداً. والكنيسة، تسمع منها أصوات الأورغ، والجوقة غير المُنتَظَمة، ومؤلفة من أناس عابرين. الشوارع فارغة.

يتوقف غوفمان ثانية: الماكياج يشوه وجهه.

يسمع الغناء من داخل الكنيسة، من خلف الأبواب المغلقة.

أرض مليئة بالحفر. أشجار محترقة يتصاعد منها الدخان. مدافع محطمة. بقايا قرى متفجرة. وثمة جثث. عديد لا نهائي من الجثث، تشرق عليها، بلا مبالاة، شمس بيضاء.

بروسيون. فرنسيون، روس. أرض هائلة القتلى أناس مشوهون. حصان مجروح، يقفز بعدته المحطمة...

صاحب الفندق الريفي، يرافق غوفمان، إلى غرفته، والشمعة في يده.

- «بونش» من فضلك. ثلاثة صحون. واعد المدفأة...

- حالاً. يمكن...

- وهل حاربت مع نابليون؟

- يقف صاحب الفندق، مذهولاً، من المفاجأة:

- لعلك لحظت أنني أعرج؟

- و«الروم» هل هو جيد عندكم؟ يسأله غوفمان فجأة:

على الجسر المحترق، يتحرك فارس. الحصان حذر، منهك انحرفت عينه. الرغوة تسقط على السور المحترق. للفارس نظرة استبدادية فظيعة.

- Voyons. يزأر بصوت كصوت الأسد، مخاطباً، الياور.

هذه درسدن. نابليون على وشك أن يخسر معركة الشعوب.

يجلس غوفمان، محنياً ظهره، قرب المدفأة، وينظر إلى النار. ومن وقت إلى آخر، يتناول الكأس، ليشرب الشراب الساخن. يقترب بعدها، وهو يعرج، متكئاً على عصا، من النافذة ويفتحها.

سماء باردة مليئة بالنجوم، تنعكس على الأرض.

هدوء.

يغلق غوفمان النافذة، يخلع معطفه ويستلقي على السرير. على المنضدة، قرب الإبريق، والطست، أوراقه ولوحة صامتة، تعبر عن السيدة يوليا، وعلبة أدوية، وكأس ماء.

يهتز لهيب الشمعة، وتتساقط نقاط منها على الوسادة، التي ينام عليها غوفمان. له وجه ينطق تعاسة، أو أنه وجه رجل جد مريض.

مقابل السرير خزانة، ذات مرآة، نصف مفتوحة. هدوء. صرير مصراع الخزانة، والباب يفتح إلى آخره.

من أين ظهرت، تلك الفتاة، ذات الشريط السماوي، والشعر الأسود؟

تضع الأيدي الناعمة على الطاولة، أشياء النائم. وعلى الطاولة أيضاً تضع باقة ورد، تشذب ذبالة الشمعة، تسوي النار في المدفأة.. يصر مصراع الخزانة ثانية.

تنسكب أشعة الشمس الساطعة، في الغرفة. النوافذ مفتوحة والريح الدافئة، تداعب برقة الستارة.

الأزهار في كل مكان... وبقع الشمس، تتراقص على جدران وسقف الغرفة المضاءة.

يستيقظ غوفمان. يستدير ويجلس على السرير.

ولكن ما به؟ أين ذهبت سوالفه التي غزاها الشيب وجبينه المتغضن؟ الآثار العميقة على الخدود، ويداه المنتفختان؟ إنه شاب، لا يبدو أنه تجاوز العشرين!

ينهض من سريره، ويتقدم نحو المرآة، ليسرح شعره، ولكنه لا يتمكن، من رؤية نفسه شاباً. ففي المرآة لا تنعكس سوى الشمس المنسكبة، والغرفة والخزانة، ببابها نصف المفتوح. أما وجهه فلا يراه.

يلفت انتباهه، الضجيج، الذي يسمع من الخزانة. يقترب منها، ليسترق السمع. ثم يفتح مصراعها بهدوء. يبدو له أنه ليس، للخزانة، جدار خلفي. ولكنه ليس متأكداً من ذلك، لأن الجو مظلم، وفي الظلام لا يمكن تمييز الأشياء.

يعثر على معطفه، والبطانية، عن طريق اللمس. يزيحهما، بصعوبة، فيقعان على قاع الخزانة. زر المعطف، يحدث صوتاً وهو يرتطم بالخشب.

على بعد بضع خطوات، يرى كوة صغيرة، من خلالها يرى الفتاة ذات الشريط السماوي، والشعر الأسود تمشي، على المر، في عمق الحديقة. ثم تحتجب النافذة، إما بفعل درفات الخزانة، أو بفعل الستارة. يخيم الظلام ثانية. ويجد صعوبة، في العودة، إلى غرفته.

احترقت الشمعة تقريباً. والمدفأة بردت. يحول غوفمان، بعينيه المتعبتين، الغرفة الضيقة، إلى فندق ريفي رخيص. وخلف النافذة يُرى فجر غائم.

أطفال السيدة مارينبورغر

يجلس غوفمان على المقعد في مكتبه. لم يعد في وسعه النهوض. وفي غرفته يجلس أصدقاؤه صامتين، عددهم لا يتجاوز الاثنين، أو الثلاثة.

يجلس الدكتور شبيير، قرب المدفأة، ومعه مساعده، يعقمون قضبان الحديد بالكحول. وقرب السرير تبدو ميشا، مشغولة. يضع الطبيب القضبان المعقمة، على ظهر غوفمان العاري على جانبي العمود الفقري. ولكن المريض لا يشعر بشيء. يقلبونه بعدها، على ظهره.

– بالمناسبة – يهمس غوفمان في أذن الطبيب – أنا أيضاً، ومنذ مدة طويلة، لم أعد أنعكس في المرايا مثل شبيير.

– ربما أحضر لك بعض الحساء؟ فأنت لم تأكل شيئاً. تحاول ميشا، إبعاد زوجها، عن الأفكار السود. لا يسمعها.

– ولكن لم أترك انعكاسي لإمرأة.

– ولمن تركته؟ أبدى الطبيب اهتمامه بحرفية مدروسة.

– لها. لتلك...

– تقول لها وليس لإمرأة؟..

تسمع، من غرفة الضيوف، أصوات أطفال. ثمة من يبكي. من هنا، من الصعوبة بمكان، معرفة أو معرفتها إن كان فتاة أم صبياً.

– ماذا يجري هناك؟ يسأل غوفمان

– لا تقلق سأعرف الآن. تدخل ميشا غرفة الضيوف. ينظر غوفمان، دون أن يدير رأسه، ومن طرف عينيه، إلى المرآة الكبيرة، المعلقة على الجدار المقابل. تنعكس فيها الغرفة، والسادة والسيدات، في ملابسهم وملابسهن الأنيقة، جالسين وجالسات، على الكراسي. ينظرون إلى غوفمان باهتمام.

أين رآهم؟ ولكنهم ليسوا موجودين! فهو الذي ابتكرهم! في حين يتابعون النظر إليه، من المرآة، صامتين، بعيون حزينة.

لا أحد في الغرفة، إلا الطبيب.

– أنا أشبه الأطفال، الذين ولدوا، يوم الأحد.

– ما الذي تريد أن تقوله؟ يقترب شبيير من المريض.

– إنهم يرون أشياء يعجز الآخرون عن رؤيتها.

تعود ميشا، تقترب من السرير، تبتسم بألم.

– هناك أطفال مارينبورغر. الأصغر يبكي ويطالب بأن تحكي له حكاية. قلت له إنك ستفعل ذلك حالما تُشفى.

– آ... آ... عرفت الآن من أنا. أخيراً. يهمس ويبتسم ابتسامة ساخرة.

يحل الظلام، في الغرفة، حالاً. مساء. تقرع الأجراس، غير البعيدة. في الشارع المجاور وتسمع أصواتها.

يتحلق الجميع، ميشا، الطبيب، أصدقاء غوفمان، حول الميت، صامتين. تنتهي حياته...

يرتفع منطاد مزين بأعلام ذات ألوان مختلفة فوق رؤوس الأشجار، وأسطح البنايات، إلى الأعلى تدريجياً. ومنه تُرى المدينة كلها، وكأنها على كف. وها هو البيت، الواقع بين الجسر، والكنيسة، ذات البرج البرونزي، يبدو عالياً ونوافذه مفتوحة...

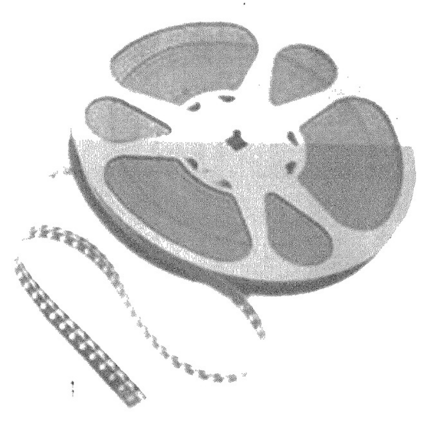
ها هو يقترب أكثر فأكثر... ها هي الغرفة تُرى، عبر الزجاج الذي يلمع والمغلف بالجلد. والمرأة، ذات الشعر الأسود، والشريط السماوي، وهي جالسة قرب طاولة الشاي. ها هي تدير رأسها... ولكنه لا يستطيع تبين ملامحها، لأن الظلام خيم.

يشعر أن الوجه الأغلى والأقرب والأعز، الذي عرفه، في حياته البائسة والقصيرة والمجنونة، هو وجهها.

الفهرس

الطبعة الأولى / ٢٠٠٣

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة





designed by: A.Aziz.M

مطابع وزارة الثقافة

٢٠٠٣

سعر النسخة داخل القطر ٦٥ ل.س

في الأقطار العربية مايعادل ١٣٠ ل.س